إندرية ميكل: حركة الإستشراق تتطور لصالح التراث العربي

■ . . الفرق بين ما قام به مستشرقوالامس، وما يقوم به مستعربو اليوم فرق شاسع . كان معظم عمل القدماء مرتبطا بالدوائر الاستعمارية. وهو عمل ينسجم وتطلعات الدول المستعمرة – بكسر الميم – اما اليوم فقد تبدلت الصورة واخذت حركة الاستشراق طريقا جديدة تتماشى وطبيعة المرحلة والوضع الجديد الذي تشهده امتنا العربية .

وعلى اساس من معطيات المرحلةالجديدة ووفق مؤشرات المستقبل ينطلق البروفسور الفرنسي ، اندريه ميكل في عمله لتطوير حركة الاستشراق ودراسة التراث العربي والتعامل معه من الداخل وبقلب صادق ومفتوح .

اندريه ميكل بدأ في دراسة التراث العربي منذ اكثر من عشرين عاما . ففي 1957 قدم « تحقيق كليلة ودمنه » في جزئين ثم الاسلام وحضارته عام 1968 والجغرافية البشرية للعالم الاسلامي عام 1975 . كذلك كتابه عن الادب العربي والذي صدر عام 1976 ، ثم يأتي كتابه الاخير عن السياب والذي صدر عن دار السندباد « الخليج والنهر » عام 1978 اضافة الى مؤلفاته الادبية الاخرى « طعام المساء » مجموعة قصصية ، و«الابن المقطوع » رواية كتبت بنفس شعري جميل .

هذا هو اندريه ميكل الذي يكره كزميله « جان بيرك » كلمة مستشرق ويقول انها « تصطحب دائما بنكهة استعمارية» . لذلك فهو يفضل كلمة « اخرى » مستعرب . ثم يؤكد : « ان حركة الاستشراق الجديدة ستشهد تطورات جديدة لصالح التراث العربي » .

لكن من اين نبدأ الحديث مع اندريه ميكل ؟

*** اود ان اعرف سر اختيارك السياب كنموذج للشعر العربي الحديث . وما هي الصعوبات التي واجهتعملك هذا ؟**

– كل اختيار مصطنع ، بمعنى ان كل اختيار مترتب على صلة روحية بين المؤلف والمترجم ، ترجمت للسياب لا لانه من اكبر الشعراء العرب المعاصرين فحسب ، بل لانه من اكثرهم مكانة عندي . انه احساس غريب ايضا . ان السياب ، صدقني واقولها لاول مرة ، يشاركني في الاحساس الكامل للاشياء ، نظرته للحياة أجدها تماما هي تلك النظرة التي عندي . ان عالم السياب هو عالمي ، فكيف تريدني ان اتجرد منه ؟ كيف لا ادخله ومن بابه الواسع ؟ أعرف شعراء العراق مثل الجواهري والبياتي ونازك الملائكةوبلند الحيدري وآخرين. غير انني فضلت الولوج في عالم شفاف لا ينتهي سر . ولا يقف عند حد . باختصار ان السياب حبب الي الشعر العربي المعاصر برمته .

*** والى اين قادك هذا الحب الكبير يا ترى ؟**

– الى تذوق الشعر العربي . .

سألتني عن الصعوبات التي اعترضت طريقي في ترجمة السياب . اقول ان الشعر هو عبقرية اللغة . واعتقد ان في هذه الكلمة تكمن تلك الصعوبات التي تواجه المترجمين في مجال الشعر . ان الترجمة وكما يقول المثل الايطالي خيانة . واقول انا ان ترجمة الشعر خيانة اكبر . ولكن هل نقف مكتوفي الايدي اما هذه المهمة العسيرة . لا ابدا .لكن لابد من توافر بعض الشروط المهمة قبل البدء في هذا العمل اهمها التذوق من الداخل . الشعور بعمق الاختلاجة اضافة الى فهمالمعايير اللغوية في اللغتين .

اننا في الشعر نصنع محاولة تقتربباللغة الكاملة الى اللغة الاولى . ولهذا فاننا لا نستطيع ان نصنع شعرا فرنسيا مساويا للشعر العربي وعلى نفس الصعيد . اذن لا يمكن العثور على ترجمة كاملة وناضجة . . ان مشكلة المترجم التراوح بينالترجمة الحرفية –حرفية النص– وبين النص الشعري وما بين هذه العملية تبرز مسألة الاخلاص . المحافظة . وفي ترجمتي للسياب لم اسلك منهاجا خاصا ، لقد حاولت وباستمرار التطرق الى نص شعري فرنسيواف ومقبول . اي بمعنى آخر فكرت بأن القارىء الفرنسي يجب ان يلمس شعرا عربيا كتب بالفرنسية وبشكل مباشر . وهذه بتقديري مهمة صعبة .

*** وفي النثر هل تواجه نفس المشكلة ؟**

– لقد ذكرت ان ترجمة الشعر محاولة للتطرق الى نص فرنسي مقبول . لا اكثر .وهذه المشكلة لم تزل هي هي منذ بداية الشعر الجاهلي وحتى الشعر العربي المعاصر . اعني مشكلة المرور من لغة مع عبقريتها الخاصة الى لغة اخرى .

اما في النثر فالمسألة اسهل بكثير . اذا قرات كتاب « الحيوان » للجاحظ تشعر بذلك النثر الخطابي الجميل. وهو نثر طويل وصعب جدا . . هنا يمكن ان ابحث عن النثر الفرنسي الذي يمكن استعماله ليقابل الادب الجاحظي . سألجأ مثلا الى نثر خطابي واضح وسليم مقتبس من الخطيب الديني « دين بيوسيه » ، او اليوم نجده في روائع اندريه مالرو . اذن سنجد في النثر الفرنسي نموذجا يقترب الى النموذج العربي . وفي فقرات الجاحظ جمل مفيدة وغنية . خلاصة هذا الحديث اننا وجدنا علاقة بين العربية والفرنسية في مجال النثر، ولكن ليس في الشعر ، لانني كما قلت ان الشعر هو عبقرية اللغة . وللغتين العربية والفرنسية نفس القوة في العبقرية .

*** هل يمكن لنا ان نعرف سر الاهتمام الحالي بالتراث العربي ومتى بدات المحاولات الاولى ؟**

– الحقيقة التي لا مفر منها هي ان العرب بداوا اليوم يطرقون وبقوة بوابات العالم .انهم ورغم كل عوامل القهر والتجزئة والمؤامراتالتي تحيط بهم يريدون اخذ دورهم في الحياة المعاصرة . يريدون باختصار اثبات هويتهم الحضارية وهم ، والتاريخ الحديث يشهد كما شهد لهم التاريخ القديم ، استطاعوا وبفترة قصيرة تحقيق بعضا من اهدافهم القومية الاستقلال السياسي والاقتصادي الكامل – العراق مثلا – .

اذن هناك التاريخ القديم الذي لا يمكن نسيانه ولو كره الكافرون . وهنا اليومالحاضر الذي يبشر بمستقبل كبير . ولعل سر الاهتمام الكبير هذا نابع من كشف اوليات ذلك المستقبل الكبير الذي ينتظر العرب في السنوات القادمة .

*** وكيف يمكن الرد على اولئك الذين يقللون عن عمد وسوء نية دور العرب الحضاري في السابق ؟**

ـ هؤلاء الذين تذكرهم الآن منتمون الى عالم وتاريخ قديمين .. نحن نعلم ان الحضارة العربية الاسلامية لعبت دورها الخاص والرائد وكان دورا مهما .. دورا انسانيا بكل ما في الانسانية من معنى .

.. نعم هناك من يقول ان العرب ايقظوا الحضارة الغربية في القرون الوسطى .. وربما يقول قائل آخر .. ان العرب لم يلعبوا دورا في هذه النهضة الانسانية . نعرف اليوم ان نهضة العالم الغربي في القرون الوسطى قامت على اساسين مهمين :

1 ـ اكتشاف مؤلفات العصور التاريخية والرومانية والتي كتبت في اللغتين اليونانية واللاتينية .

2 ـ دور العرب في ترجمة هذه المؤلفات وتوصيلها الى العالم الغربي والتي ترجمت بعد ذلك من اللغة العربية الى اللغات الاجنبية الاخرى .

وهنا لابد من التاكيد على مسالة مهمة وهي ان العرب لم يكتفوا بالترجمة بل اضافوا الكثير ، وطوروا الكثير وبشكل يتلاءم وتراثهم العربي الاسلامي .

ويتابع اندريه ميكل ساخرا :

ومن المضحك ان نقول بان العرب لم يلعبوا دورا حضاريا . انهم لعبوا دورا مهما في المحافظة والتطوير والابداع . كلنا يعرف انهم لعبوا دورا اساسيا في الرياضيات والعلوم الفيزيائية والكيمائية والكشف عن اراضي مجهولة . ونعرف انهم اضافوا الجبر الى الرياضيات القديمة . وقاسوا الكرة الارضية . ودائرة الطول . ومجالات واسعة في عالم الطب . ان ابن رشد وفلسفته ، والرازي وطبه ، والفارابي وكشوفاته ، وابن الهيثم وغير هؤلاء هم من الاسماء التي ما زالت عالقة في الاذهان .

خلاصة القول ان العرب لعبوا دورهم الكامل والخاص بهم كشعب ما زال التاريخ الانساني شاهدا له بذلك . هل يمكن لنا اليوم ان ننسى تلك المدينة العظيمة بغداد حيث كانت مقصدا لرجال العلم في جميع ارجاء الدنيا وفي



■ اندريه ميكل

وقت كانت باريس قرية صغيرة ، واوربا تدور في ظلمات الجهل . ولهذا فانا اليوم متفائل وبشكل لا يوصف بمستقبل العرب القريب وذلك لعدة اسباب اولها هي ان العرب جسر يربط الشرق بالغرب وانهم اصحاب القوة في هذا العالم المعاصر في الطاقة وفي عدد السكان. كذلك فانهم يشكلون اليوم كتلة مهمة من كتل العالم اجمع . واخيرا رغبة العربي في تطوير نفسه وحبه للعلم والتقدم ومسابقة الامم .

اعود الى المحاولات الاولى التي بدات بتعريف الادب العربي المعاصر للفرنسيين وعلى ما اعتقد فان غاستون فيب ترجم يوميات نائب في الارياف لتوفيق الحكيم بعد الحرب الكونية الثانية . وربما تكون هناك محاولات اخرى . لكن السنوات الاخيرة شهدت حركة طيبة في هذا المجال اذكر على سبيل المثال جهود البروفسور جاك بيرك وآخرها الترجمة القيمة لطه حسين .

*** لماذا لم تؤلف لجنة لهذا الغرض ؟**

ـ نعم لقد قررت تأسيس لجنة . اعني مجموعة من المؤلفين الفرنسيين والمستشرقين لدراسة هذه المشكلة . مشكلة الترجمة من العربية الى الفرنسية وبالعكس ونحن نعلق اهمية قصوى على اعمال هذه اللجنة .

*** هل هناك صعوبات تعترض مهمتكم هذه ؟**

نعم هناك صعوبات متأتية من ضخامة الادب العربي المعاصر نفسه نحن كما تعرف قلة ولنا مشاغل كثيرة ، ابحاثنا ، طلابنا في الكولج دي فرنس . المجالات الاخرى الخاصة . ومن خلال هذا تبرز وبوضوح مشكلة الوقت . ثم ان ترجمة الادب العربي لا تأتي ضمن اختيار سريع وعفوي لان القاريء الفرنسي ينتظر ادبا عربيا يوازي المكانة التي هو فيه .. وبعبارة ادق يريد التعرف على اعمال نجيب محفوظ كروائي عربي مبدع .. لا اميل زولا مصري !! .. اذن علينا ان نفتش في قصص نجيب محفوظ ما هو اكثر ابداعا .. بطبيعة الحال لانستطيع ترجمة كل اعماله .. لان الوطن العربي غني بالادباء والشعراء . خذ مثلا في القصة القصيرة عندكم فؤاد التكرلي بدأ بداية جيدة في كتابة القصة القصيرة .. وربما عندكم الكثيرون مثله .. لكن من المؤسف جدا انني غير ملم بكل هذا.

*** هذا يعني ان اللجنة التي اشرت اليها بحاجة الى استشارات بعض المثقفين العرب الذين يقيمون في باريس ؟**

ـ هذه فكرة لا يمكن الاستغناء عنها . هناك اتصالات .. وهناك تعاون وستشهد السنوات القادمة ثمرة اعمالنا .. لانه من المحزن ان يبقى الادب العربي سجين حدوده . لابد من ان يتعرف العالم على شكل ومضمون هذا الادب .

ان الادب العربي ومع الاسف الشديد غير معروف في العالم . ويكفي ان جائزة نوبل لم تعط لاديب عربي قط ! لماذا ؟ السبب الحقيقي هو الجهل المطبق لهذ الادب الحي .

*** اذن لا يمكن للادب العربي ان يلعب دوره العالمي ضمن هذه الصورة ؟**

ـ هذا صحيح .. وكان هناك دور لآداب اقل منه ابداعا وعبقرية !! لان الادب العربي وكما قلت ما زال مجهولا . ولكن رغم كل هذا هناك تقدم في هذا المجال . لاحظ ان اللغة العربية الآن من اللغات المستعملة في المنظمات العالمية . وارى في استعمالها باكورة لنمو دورها . وبالتالي لانتشار الادب العربي في كافة ارجاء العالم .

*** تحدثت عن اللغة العربية، هل تعتقد انها تقف اليوم عاجزة امام تطورات العصر وكثرة مفرداته ؟**

ـ عبقرية اللغة العربية هي انها لغة لن تشيخ . والتجديد كامن في احشائها . اللغة العربية غنية التأثير ، غنية المفردات . في القديم وعندما اصطدمت لاول مرة بالتراث الاغريقي اثبتت قدرتها . واليوم تثبت من جديد حيويتها الكاملة .

*** اتذكر مرة انك قارنت بين ابي نؤاس وبودلير . فماذا كانت النتيجة ؟**

ـ اقول لك بصراحة انني وصلت الى مرحلة الاختلاجة المؤثرة عند قراءتي للادب العربي . ان بعض قصائد بودلير شاخت ولم يعد لها مفعول يذكر ! بينما وجدت وانا اقرأ شعر ابي نؤاس انه ابن للعصر الحديث !

*** هذا في الشعر . وفي الفلسفة كيف تكون النتيجة ؟**

ـ في الفلسفة وجدت في كتاب الجاحظ ـ الحيوان ـ استنتاجات عصرية تشغل البال . ان العرب بحاجة الى مطالعة جديدة وذكية لمؤلفاتهم القديمة .. وهذه حقيقة تحمل اسرارا كبيرة .

*** هذا يقودنا الى مسالة التراث وكيف يمكن الاستفادة منه وبشكل معاصر ؟**

ـ تراثكم غني ، ولا يمكن الاستغناء عنه . ومن السهل ان يوظف بشكل معاصر لان فيه وكما قلت من الاستنتاجات المعصرية الكثيرة .

*** كيف تنظر الى مسالة الصراع الحضاري ؟**

ـ هناك سوء فهم كبير لهذه المسالة . لقد قلت اكثر من مرة انه من الخطأ محاولة رد الافكار والحضارات الى نماذج مشتركة . في تقديري أن تعترف كل حضارة من الحضارات بميزة وخصوصية الذكاء الموجود عند غيرها . لان الذكاء الانساني هو واحد ناتج عن جملة من المعطيات البيولوجية والانثروبولوجية .

*** لقد ذكر روجيه غارودي في كتابه ـ صراع الحضارات ـ ان الجامعات والمدارس الفرنسية قد اهملت دراسة الحضارات الاخرى ويقصد بها العربية والصينية والهندية . هل هذا الاهمال موجود ؟**

ـ هذا صحيح .. لكنه وبعد الحرب العالمية الثانية قد تغيرت الصورة . لقد كانت حتى دراسة الاستشراق دراسة هامشية وهي موروثة من تقاليد الجامعات الفرنسية القديمة . اليوم يبدي الفرنسيون اهتماما كبيرا بما يدور في العالم وفي الاخص في العالم العربي . لقد تغيرت كثيرا من المناهج وتحسنت طريقة التدريس . واعتقد ان هذا كله ستترتب عليه نتائج جيدة .

*** لقد زرت بغداد ، واشتركت في مهرجان المتنبي الاخير ، هل يمكن ان تعطي القارىء صورة عن ملاحظاتك عن المهرجان المذكور ؟**

ـ بصراحة كانت مفاجأة كبيرة لي .. رأيت مثلا محاضرا يصعد على المنبر ويقرأ ابياتا للمتنبي فاذا بالقاعة كلها تنشد معه هذه الابيات !! كنت افكر في هذه اللحظة : ماذا يحدث في فرنسا لو قرأ محاضر شعر فيكتور هوغو ؟ صدقني ستبقى القاعة بكماء . لماذا ؟ لاننا في فرنسا لا تتصرف بذاكرة متمرنة لذاكرة الشعر . نحن في هذه الناحية وكما يقول القرآن الكريم صم بكم عمي !

ـ لقد فوجئت بروح المتنبي التي ما زالت قوية . ان المتنبي شاعر كبير . واعود فاقول انه واحد من الشعراء القلائل الذين يعرفهم التاريخ الانساني .

كذلك فوجئت بقوة الشعر العربي الموجودة بروح العرب والتي ما زالت واضحة حتى الآن . واظن ان هذه القوة تنتمي الى اسس الحضارة العربية . أعني ان الثقافة الشعرية عندكم اكبر من اسس ثقافتنا في فرنسا .

*** والعراق كيف وجدته ؟**

ـ كل شيء في جريان .. العراق اليوم ورشة عمل كبيرة . الكل يعمل ، الكل يتحرك ، الكل يعدو ، هذه ملاحظة لا يمكن للاجنبي الا وان يشاهدها ويعيشها .

وزرت بابل والحديث عن بابل حديث طويل غير اني اقول وعلى صفحات مجلة آفاق عربية : عجلوا في بناء هذه المدينة الخالدة . ان العالم المتحضر سينحني من جديد امام باب هذه الحضارة العظيمة .

اجرى الحوار : كاظم المقدادي

◆